

الحكماء

وتقلبات الأسواق

وارن بافت ، جورج سوروس ، بول فولكر



تشارلز ر. موريس

تقديم

هل غلبَ الممارسُ الفارسُ حقاً؟

لا نبالغ أبداً في قولنا: إن الإنسان هو أهم سكان الأرض، ولا شك في أن المبادرات الفردية (التي يقوم بها الإنسان) تعتبر قوام أكثر الأعمال نجاحاً. وهذا لا يُنقص دور الأعمال الجماعية أبداً، بل يدعمها؛ لأنها مزيج من الأعمال الفردية المنسجمة معاً.

إن الرؤى الإستراتيجية الناجمة عن قراءة ما حصل وما يحصل وما سيحصل من قبل إنسان مدرك لما يفعل ولما يؤمن به هي أس النجاح الشامل المرتكز على عناصر موضوعية.

إن (سوروس، وبافيت) هما من أغنى أغنياء العالم، وعوا أزمة ثلاثينيات القرن الماضي وفهموا قواعد لعبة الأسواق بوصفها غابة فرص وتحديات حيث كل شيء فيها مباح من غش وكذب وتدليس وخداع. ويمثلان نموذجاً من نماذج اقتصادية نجت من الأزمة، أما ثالثهم (فولكر) فكان نموذج بطل قيادة الاقتصاد الأمريكي الكلي بسياساته التي سيطرت على وحش التضخم فساهم بتحسين صورة الاقتصاد الأمريكي حيناً من الدهر.

فقد رأى (سوروس) أن دراسة السلوك البشري وردود الفعل الانعكاسية عند البشر تبين أن الأسواق غير المستقرة جاهزة وناضجة بما فيه الكفاية لصنع فقاعة جديدة. فدورة الازدهار والكساد غالباً ما تحمل في طياتها الائتمان (Credit) وغالباً لا تقف هذه الدورة في ظل غياب التصورات الأساسية الخاطئة المتعلقة بالائتمان.. فالمقرضون يخطئون بتحديد الجدارة الائتمانية للمقترضين أو بإدراك القيمة المستقبلية للأصول، وبازدياد الإقراض ترتفع أسعار هذه الأصول فيزيدون في الإقراض أكثر فأكثر، ويجتذبون بنجاحهم مقرضين جدد، وهكذا حتى تكتمل دورة الازدهار والكساد.

يجمع هؤلاء الثلاثة تصيدهم للفرص ولو أطاح ذلك بغيرهم سواء أكان المتضرر أفراداً أم دولاً، فقد أطاح (سوروس) مثلاً باقتصاد بريطانيا العظمى بما فعله بالجنه الإستراتيجي على الرغم من كون الجنه عملة رابع أقوى اقتصاد بلد في العالم، متجاوزاً بذلك هيبة ذلك البلد الذي لا تغيب الشمس عنه، بل وهيبة علمائه وخبرائه.

ورأى (بافيت) أن المشتقات أسلحة وذخيرة دمار شامل لكنه اقتنص ما استطاع قنصه وترك غيره يغرق في وحلها.

وعلى الرغم من أن (سوروس) حذر من تجمع فقاعة كبيرة بالغة في الضخامة في أواخر التسعينيات. وأن (بافيت) أطلق جرس الإنذار الذي يحذر من الإفراط في الهندسة المالية بعد عدة سنوات من تحذير (سوروس).. فإن (فولكر) بدأت مخاوفه قبل ذلك بكثير ولكنه لم ينشرها على الملأ!!

اهيار الرموز

لقد استغرق اهيار الشيوعية المادية سبعين عاماً، واستغرق اهيار مدرسة شيكاغو النقدية أحد أهم دعائم ورموز الرأسمالية الجشعة ثمانين عاماً. وهذا هو شأن التجارب الاجتماعية، ويكأنهم يتعلمون بالممارسة. فقد شهدت مراحل حياة (فولكر) انحلال اتفاقية بريتون وودز، وثورة المال والائتمان، والتضخم الناجم عن فقاعة المصارف.

- انتهاء منهج مدرسة شيكاغو النقدية:

لقد فهم الحكماء الثلاثة دروس الأزمات واستوعبوا وعلموا مدى انحراف مدرسة شيكاغو النقدية التي قادها أكاديميون مهرة كـ (ملتون فريدمان) حيث شكلت جسراً بين الأزمتين الماليتين العملاقتين أزمة ١٩٢٩ وأزمة ٢٠٠٨ وخلاصتها أن للأسواق قدرتها الفعالة على تحقيق التوازن، عكس ما نهجه (الكيتريون) في التدخل.

وتساءل (سوروس) إذا كانت الأسواق بهذه الكفاءة فلماذا تنهار؟ لقد رأى أن العلاقة بين السلطة المالية والأسواق المالية هي عملية ردود أفعال انعكاسية مستمرة لأن كليهما يتصرف وفقاً لمعرفة منقوصة.

- انحلال اتفاقية (بريتون وودز):

إن حلل هذه الاتفاقية هو افتراضها الضمني لاستمرار التفاوت الكبير بين أمريكا وبقية العالم من حيث الثروة والقدرة الإنتاجية. فاستغلت الشركات الأمريكية فرق السعر بسبب تقييم الدولار وقامت بشراء الشركات الأوروبية حتى أن ذلك أثار حنق (الرئيس الفرنسي الشهير شارل ديغول) عليها.

الحكماء وتقلبات الأسواق

وأغرى (عدم التوافق بين كميات الدولار المطروحة والاحتياطي الذهبي) تجار العملات، فالالتزام الأمريكي بـ ٣٥ دولاراً أمريكياً لأونصة الذهب أدى لرفع أسعار الفائدة وتلك بدورها أدت لتباطؤ النمو الأمريكي.

ويعتقد (سوروس) أن نظام العملات إنما هو عبارة عن مناجم غنية لردود الفعل الانعكاسية اللازمة للتعامل بالأسواق لأنها تُنشئ منافسات بين التجار المستثمرين والحكومة كلٌ حسب إدراكه وشعوره وتنبؤاته بأحوال السوق، وتحاول معظم الحكومات إدارة سعر الصرف لمنع التذبذب في أسعار السلع المتاجر بها في الأسواق، لكن حالما يثبت سعر الصرف، يكون هدفاً طبيعياً للمضاربين الذين يتحرون القرارات الحكومية.

ومما زاد الطين بلة فرض الضرائب الذي أدى إلى هروب رؤوس الأموال إلى الفروع الخارجية للبنوك الأمريكية حيث استثمرت في أوروبا دون عناء الضريبة.

إن السياستين السابقتين، أي (سعر الفائدة) و(فرض الضرائب) قد أسهمتاً بإيجاد تضخم مستمر مؤداه عجز ميزانية دائم. و تعايشت كل الدول للأسف مع هذا العجز الذي أضحى ظاهرة طبيعية، له من يؤصله ويدرسه ويدافع عنه.

وإني أنصح كل أكاديمي وباحث وطالب علم، وممارس سواء كان وزيراً أو حاكماً لمصرف مركزي أو مدير خزينة أن يقرأ هذا الكتاب بإمعان وأن يستوعب دروسه. وذلك لبيتعد عن الانبهار الأخاذ الذي يصم الآذان ويعمي الأبصار فيجعله إمعة مصدقاً لما يراه دون فهم لما وراءه، وللأسف فهذه صفة فئة من الغالبية المتحكمة ومن يسير على خطاها.

فهل غلب الممارس الفارس حقاً؟

يبدو أن الجواب في كتاب الحكماء هو نعم، فقد غلب (سوروس وبافيت) وأمثالهم غيرهم بدرائتهم بالسوق وأحكامه وأعباه ففازوا (بحسب معتقدتهم ومقاييس البعض) وغيرهم لم يفعل!

الدكتور سامر مظهر قنطقجي